سيرة الأمير شكيب أَرسلان وأبرز منجزاته[1]

(١٨٦٩-١٩٥٦)

المكان بيت من بيوت السَرَاة[2]، يقع في حارة الأمراء، بحيّ آل ارسلان، بقرية "الشويفات" التي تبعد عن "بيروت" قرابة عشرة أميال، وتقع فوق ربوة منبسطة تشرف على ساحل البحر الأبيض المتوسّط، وهذه القرية هي إحدى قرى مقاطعة "الشوف"[3]، وهي إحدى مقاطعات لبنان.

وهذا البيت هو بيت الأمير حَمُود بن حسن الأرسلانيّ والد أمير البيان الأمير شكيب أرسلان.

والوقت هو ليلة الإثنين أوّل ليلة من رمضان سنة ستّ وثمانين ومائتين بعد الألف للهجرة (١٢٨٦ هـ) الموافق الخامس والعشرين من ديسمبر سنة تسع وستين وثمانمائة بعد الألف للميلاد (١٨٦٩ م).

في هذه الليلة كان ميلاد شكيب أرسلان بعد أخٍ له سبقه في الميلاد بسنة ونصف، هو الأمير "نسيب".

وقد سمّاه والده باسم "شكيب"، وهذا الاسم فارسيّ، ومعناه في الفارسيّة "الصابر"، ومادّة "الشُكْب" في اللغة العربيّة تدل على العطاء والجزاء.

وشكيب هو ابن حَمُود بن حسن بن يونس بن فخر الدين بن حيدر بن سليمان بن فخر الدين بن يحيى بن مذحج بن محمّد بن أحمد بن خليل بن مفرّج بن يحيى.

ويمضي النسب الأرسلانيّ ضاربًا في أعماق الماضي حتّى يبلغ جدّ الأسرة الذي اشتهرت به، وهو الأمير أرسلان الذي مات سنة إحدى وسبعين ومئة هجريّة، والذي يمضي نسبه مرّة أخرى ضاربًا في أحشاء الزمن حتّى يبلغ الملك المنذر بن ماء السماء اللخميّ.

وتفاخر أسرة أرسلان بأمجاد لها في التاريخ، فجدّها "الأمير عون" قد اشترك مع خالد بن الوليد في نجدته لأبي عبيدة في فتوح الشام، واستشهد عون في معركة "أجنادين". والأمير أرسلان بن مالك المنذريّ حارب صنائع الروم في لبنان بأمر أبي جعفر المنصور الخليفة العباسيّ، وفي الحروب الصليبيّة أبلى آل أرسلان بلاء حسنًا، كما عاونوا دولة الخلافة في فتوحاتها.

---

[1] نقلًا عن: الشرباصي، أحمد، "حياة طويلة حافلة"، في **شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام**، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الجيل، ٢٠٠١، ص ١٣-١٥، ٢٠-٢٦، ٢٩-٣٠، ٣٥-٤٧.

[[2] السَرَاة: السادة الأشراف الأسخياء.]

[[3] الشويفات، اليوم، هي إحدى بلدات قضاء عاليه.]

ويحدّثنا شكيب بأنّه من سلالة "الأشراف" و"آل البيت"، لأنّ أجداده قد تناسلوا من الفاطميّات. وأبوه الأمير حَمُود كان رجلًا ذكيًّا كريمًا شجاعًا، يجيد العربيّة ويعرف التركيّة، وله مشاركة في الأدب والشعر، وقد توفّي في سنة ١٣٠٥هـ – ١٨٨٧م ودُفن بالشويفات.

وأمّ شكيب سيّدة شركسيّة فاضلة ، عَمَّرت طويلًا، وكان شكيب يحبّها ويجلّها، ويحنّ إليها بقوّة وهو بعيد عنها، ويبذل أقصى جهده لرؤيتها ولثم يدها فهي "السيّدة الوالدة".

ولقد عني شكيب، في كتاب "روض الشقيق" وغيره، بالحديث عن أسرته ونسبها ومفاخرها، وهو لا يرى في ذلك غضاضة، بل يعدّه في الأمور المحمودة. ولذلك نراه يعقد، في تعليقاته على كتاب ابن خلدون، فصلًا في عشرين صفحة عن الأنساب وقيمتها، واهتمام العرب بها. ويقول عن أفراد أسرته: "وإذ كانوا من آل البيت النبويّ –وهو أشرف الأنساب بالنظر إلى اتّصالهم بفاطمة الزهراء التي هي بضعة الرسول عليه السلام، وهو أشرف الخلق– حرّروا أنسابهم لدى نقباء الأشراف، وكتبوا به الكتب المُؤلَّفة، وهذا أمر بديهيّ لا نزاع فيه، لأنّ هذا الشرف هو ممّا يُتَنافَس به، وممّا يستجلِب لصاحبه مزايا معنويّة، وأحيانًا منافع ماديّة، فلا يريد منتسِبٌ إلى هذا البيت الشريف أن يفقد الدليل على نسبته هذه"[1].

ويعود فيتحدّث عن تمسّك العرب بالأنساب، وما يثيره فيهم من حميّة ونخوة وتنافس على المجد من جهة، وما يثيره من فتن وعداوات تُصَدِّع وَحدتهم من جهة أخرى، ويقرّر أنّ الاعتزاز بالنسب إذا لم يؤدِّ إلى الانقسام عمل كريم وسُنَّة محمودة [...]. ثمّ يضرب المثل في هذا بالألمان، ويبيّن أنّ التمسُّك بالأنساب يدعو إلى توارث الفضائل، والحرص على سمعة البيوتات. من أجل هذا وغيره عني شكيب بإطالة الحديث عن نسبه وأسرته وأجداده.

وشكيب منسوب، من الناحية السياسيّة الطائفيّة الرسميّة الشكليّة، إلى طائفة "الدروز"، ولبنان على عهده– كما يذكر الإمام محمّد عبده– طوائف كثيرة، ففيها الموارنة النصارى، والدروز بالجبل، والسنّيّون، والشيعة، وفيها دروز حوران، وشيعة السَّقيف، وبلاد بشارة في نواحي صيدا وصور، وفيها النصيريّة الذين يعتقدون بألوهيّة عليّ بن أبي طالب، وفيها الطوائف المختلفة: الموارنة، والروم الملكيّون، والبروتستانت، والروم الأرثوذكس.[...].

[ولشكيب نفسه حديث مطوّل عن الدروز، ولقد تناول عقيدتهم وعروبتهم في مناسبات عديدة ...]. وحينما تحدّث شكيب عن تقزُّز الشيخ محمّد عبده من سماع الألفاظ النابية، وأسماء العَورات، لم ينسَ الدفاع عن الدروز، فقال عن الشيخ: "فكان في هذا الأمر كثير الاستحسان لطريقة الدروز الذين كان العلّامة [كورنيليوس] ڤانديك الأمريكانيّ الكبير يقول عنهم: تعاشر الواحد منهم خمسين سنة فلا تسمع منه، ولا مرّة، لفظ سَوْءة، ولا قصّة فيها شيء من الخلاعة. وكان المرحوم الأستاذ يستحسن جدًّا هذه المزيّة فيهم، ويعجب بآدابهم في مجالسهم، حتّى آداب العوامّ منهم"[2].

ولشكيب في كتابه "عروة الاتّحاد" فصل في اثنتي عشرة صفحة عن الدروز، وعروبتهم، جعل عنوانه "آل معروف في الذروة من العروبة"[3]. وآل معروف هو لقب الدروز، قيل إنّهم سُمّوا به لاشتهارهم بإسداء المعروف إلى الناس.

---

١. كتاب "روض الشقيق" ص ١٤٧؛ تاريخ ابن خلدون، ملحق الجزء الأوّل، ص ٥.

٢. تاريخ الأستاذ الإمام، ج ١، ص ٤٠٦، من مقال لشكيب عن الإمام [الشيخ محمّد عبده].

٣. عروة الاتّحاد، ص ٢٥– ٣٦.

ولقد سبق أنّ الأمير يُعَدُّ، من الناحية الشكليّة، درزيًّا، ولكنّه في الاعتقاد كان سُنيًّا: وكان يتعبّد على مذهب أهل السُنّة، فهو يصوم ويصلّي ويزكّي ويحجّ كما يفعل جمهور المسلمين، ودفاعه عن الدروز كان سياسة وبقصد تجميع الكلمة، وعدم التفرقة بين الأمّة.

ولقد عاش شكيب أرسلان في عصر حافل بالأحداث والوقائع:

إنّه وُلِد في ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩م، وتوفّي في ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦. أي أنّه شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، كما شهد النصف الأوّل من القرن العشرين، وفي هذه الفترة حدثت أحداث ووقعت أمور، ففيها استأسد الإحتلال الأوربّي لبلاد العروبة والإسلام، وفيها استبان عَسْف الحكّام الأتراك بالعرب، وفيها تنبّه الوعي القوميّ العربيّ، ونشأت فكرة التخلّص من الحكم العثمانيّ، والاستقلال في الحكم العربيّ، وفيها سقطت الخلافة وانطوى حكم بني عثمان، وفيها وقعت الحربان العالميّتان الأولى والثانية، وفيها اقتسمت إنجلترة وفرنسة بلاد العرب بعد تمزيقها، وفيها اقتُطعت فلسطين من أرض العروبة واغتصبها اليهود، وفيها ظهرت بدع الإستعمار، والوصاية، والإنتداب، والإشراف، وفيها تخلّص العرب من الإحتلال في كثير من بلادهم، وفيها قامت عصبة الأمم ثمّ ماتت، وفيها نشأت هيئة الأمم المتّحدة .. الخ.

وشكيب، بين هذه الأحداث وسواها، يعيش ويسعى، ويحيا حياة عامّة دائبة، يتصل فيها بالأحداث، ويتأثّر بها ويؤثّر فيها بما يستطيع، ولذلك يسهل علينا أن نقرّر أنّه قد قضى حياة جليلة حافلة ...

وكان شكيب قريبًا في العمر من شقيقه نسيب، فكأنّهما توأمان، ولما بلغ شكيب الخامسة من عمره أحضر لهما أبوهما في المنزل معلّمًا اسمه الشيخ مرعي شاهين سلمان، فعلّمهما الدروس الأولى في القراءة والكتابة؛ وفي الصيف ذهبت الأسرة إلى بلدة "عين عنوب"، وهناك أحضر الأمير حَمُود لولديه معلّمًا آخر اسمه أسعد فيصل، فعلّمهما تلاوة القرآن الكريم وحفّظهما جانبًا منه.

وبعد رجوع الأسرة إلى "الشويفات" دخل الشقيقان المدرسة الأمريكيّة بالقرية، حيث تلقّيا دروس الجغرافية والحساب واللغة الإنجليزيّة وغيرها، وفي سنة ١٨٧٩ م دخلا "مدرسة الحكمة" في بيروت، وهي مدرسة مارونيّة مشهورة بإجادة تعليم اللغة العربيّة، فمكث فيها شكيب ثماني سنوات يتعلّم، وكان أقوى الأساتذة تأثيرًا فيه الشيخ عبد الله البستاني اللغويّ الأديب الشاعر الذي قضى أكثر من ثلاثين عامًا في تدريس اللغة العربيّة، وكان مشهورًا بتعصّبه لها ودفاعه عنها، وقد وُلِد في قرية "الدبيّة" بلبنان سنة ١٨٥٤م وتوفّي سنة ١٩٣٠، وهو صاحب المعجم اللغويّ المعروف "البستان".

وقد زار الإمام محمّد عبده مدرسة الحكمة وشكيب يتعلّم فيها، فأُعجب الإمام بالفتى الذكيّ الذي بدأ يقول الشعر، وتوقّع الإمام للفتى غدًا مشهورًا، ومنذ ذلك اليوم أخذت علاقة شكيب تتوثّق بالإمام، فيسمع منه ويتأثّر به.

وقد توثّقت الصلة، منذ ذلك، بين الأستاذ الإمام وأسرة شكيب أيضًا، فالشيخ يزور الأمير حَمُود أرسلان (والد شكيب) في الشويفات، ويتراسل معه، [...]، وكانت أمّ شكيب في ذلك الوقت حاملًا، والأسرة تنتظر مولودًا جاء بعد أيّام، وهو الأمير عادل أرسلان.

وفي سنة ١٨٨٧ م دخل شكيب مع أخيه "المدرسة السلطانيّة" ببيروت، وفيها درس على الأستاذ الإمام الفقهَ والتوحيدَ بجوار علوم المدرسة الأخرى.

وفي سنة ١٨٨٩م سافر شكيب إلى دمشق، وحضر مجلس الشيخ محمّد المنيني مفتي الشام.

وفي سنة ١٨٩٠م زار شكيب مصر لأوّل مرّة، فقضى في الإسكندريّة قرابة شهر، ثمّ انتقل إلى القاهرة، واجتمع بالشيخ محمّد عبده الذي كان قد عاد إلى مصر بعد نفيه، وكان شكيب قد أرسل إلى الإمام الشيخ محمّد عبده يستشيره في قدومه إلى مصر، فكتب إليه الشيخ يحرّضه على ذلك [...].

وفي زيارته الأولى لمصر تعرّف إلى الشيخ علي يوسف صاحب "المؤيّد" حيث زاره في إدارة الجريدة، فرآها متواضعة في أثاثها جدًّا، ورأى صاحبها يعالج كتابة مقال عن بداية العام الهجريّ، ولكنّ الكلام استعصى عليه، فهو يكتب ويمحو، ثمّ يعود ليكتب ويمحو، فقال له شكيب: لو قلت كذا، وكذا؟ فقال الشيخ علي مسرعًا: بالله عليك تكتب أنت هذه الإفتتاحيّة! وكتبها شكيب في المجلس.

وفي هذه الزيارة أيضًا بدأ اتّصاله بجريدة "الأهرام"، وأخذ ينشر فيها مقالات بتوقيعٍ رمزيٍّ أو صريح.

وفي أواخر سنة ١٨٩٠ سافر شكيب إلى "الآستانة"، والتقى بثائر الإسلام وموقِظ الشرق السيّد جمال الدين الأفغانيّ، وسمع منه وتأثّر به، وتحدّثا بعد ذلك عن الشيخ محمّد عبده، فقال شكيب: إنّ الشيخ عبده يندر مثله في مصر. فقال جمال الدين: بل لا يوجد مثله في مصر.

وفي سنة ١٨٩٢ سافر إلى فرنسة، وهناك تعرّف بالشاعر أحمد شوقي الذي صار فيما بعد "أمير الشعراء". يقول شكيب: وما عدت أتذكّر كيفيّةَ اجتماعنا، وتعارفَ بعضِنا مع بعض، ولكن لم نجتمع حتّى صرنا كأخوين، وغدونا نجتمع كلّ يوم مرّة أو مرّتين [...].

وعاد شكيب من فرنسة إلى لبنان بعد أن أرضى نزعته إلى الرحلة والسياحة، وبعد أن عالج نفسه من مرض كان قد ألمّ به. وفي سنة ١٩٠٨ عُيِّن مديرًا للشويفات سنتين، ثمّ عُيّن في رتبة "قائم مقام" لمقاطعة "الشوف" ثلاث سنوات.

ولمّا صدر الدستور العثمانيّ سنة ١٩٠٨، وتألّف مجلس "المبعوثان" بالآستانة سنة ١٩٠٩، اختير شكيب ليكون نائبًا عن "حوران"، وهو سهل من سهول الشام، وكان في ذلك الوقت من أنصار التعاون بين العرب والترك، ومن الموالين للخلافة العثمانيّة.

وفي سنة ١٩١١ اعتدت إيطالية على طرابلس الغرب (ليبية)، فغضب شكيب من هذا العدوان، وكتب إلى مختلف الجهات يحرّض على نجدة العرب في طرابلس، ويحثّ على مدّهم بالأموال والسلاح، وأبرق إلى المسؤولين في الآستانة بذلك، فجاءته برقيّة من شوكت باشا ناظر الحربيّة تفيض شكرًا، وتقديرًا.

وكتب شكيب رسائل يَسْتَجْيِشُ بها المصريّين لمعاونة إخوتهم الطرابلسيّين، [... وممّن كتب إليهم السيّد محمّد رشيد رضا]. وقدم إلى مصر متطوّعًا مع طائفة من المجاهدين، واستطاع أن يدخل طرابلس متخفّيًا، وهناك اشترك مع القائد العثمانيّ أنور باشا، وكانت آراؤه سديدة في الشؤون السياسيّة والعسكريّة، حتّى قال الزعيم الطرابلسيّ سليمان الباروني في ما بعد: "لو أخذت الحكومة العثمانيّة بتفاصيل الخطّة التي رسمها الأمير شكيب، ونُفِّذت بحذافيرها، لَمَا ضاع الأمل في إنقاذ طرابلس وبرقة، أو لاستطعنا على الأقلّ إطالة الحرب ثلاث أو أربع سنوات أخرى"[١].

١. كتاب ذكرى الأمير شكيب، ص ٤٤.

وفي أثناء هذه الرحلة اجتمع شكيب بأخيه وصديقه السيّد محمّد رشيد رضا في مصر، والتقى في بيته بالشريف علي بن عمر ابن عمّ الشريف حسين أمير مكّة [المُكرّمة] الذي صار فيما بعد ملك الحجاز [...]. وقد ظلّ شكيب، في هذه الرحلة، أربعين يومًا بالقاهرة كتب فيها أربعين مقالة نشرتها "المؤيّد"، تباعًا، في مكان الإفتتاحيّة.

وفي سنة ١٩١٢ سافر شكيب من طرابلس إلى تركية، حيث اختير مفتّشًا لبعثات الهلال الأحمر المصريّ، فقام بمهمّته على خير وجه، وفي سنة ١٩١٤ سافر إلى المدينة المنوّرة لإنشاء مدرسة فيها.

وكان شكيب عثمانيّ النزعة، لأنّه كان يرى في الخلافة العثمانيّة عزًّا للإسلام وقوّة للعرب. ولكنّ الخلاف أخذ يحتدم بين العرب والحكّام الأتراك. وحاول شكيب قدر طاقته إزالة أسباب التوتّر الذي اشتدّ بين الفريقين قبيل الحرب العالميّة الأولى، ولكنّه لم يستطع أن يبلغ ما يريد، لضعف الدولة، وطغيان الحكّام، واستغلال الولاة، وتطلّع العرب إلى الحرّيّة والاستقلال.

ويبدو أنّ شكيب كان يحظى بمكانة مرموقة في ديوان السلطان (الخليفة). ومن أدلّة ذلك أنّه، في أوائل الحرب العالميّة الأولى، أطلق شابّ مصريّ الرصاص على الخديوي عبّاس حلمي في الآستانة، فجرحه عدّة جراحات، والتقى شوقي بشكيب بعد الحادث، فطلب شوقي من شكيب أن يعمل على أن يذهب السلطان الخليفة لعيادة الخديوي، وقال شوقي: "كلّ مَن حادثتهم في هذا الموضوع أجابوني: إنّه ليس لهذه المسألة غيرك، فإن لم تقدر عليها أنت فلن يقدر عليها أحد".

وتحدّث شكيب مع طلعت ناظر الداخليّة، فطلب منه أن يتحدّث مع سعيد حليم الصدر الأعظم، فتحدّث شكيب مع سعيد فتعلَّل له ببعض العلل[١].

ونشبت الحرب العالميّة الأولى سنة ١٩١٤، وانضمّت تركية إلى ألمانيا ضدّ الحلفاء، وعيّنت تركية القائد أحمد جمال باشا، قائد الفيلق الرابع من الجيش العثمانيّ، واليًا على الشام والحجاز، فبغى وطغى، وأخذ بَغْيُه يتزايد مع الأيّام، وكان جمال باشا يعرف للأمير شكيب مكانته بين قومه، وأحسن شكيب استغلال هذه المكانة لمصلحة قومه، وللتخفيف من مظالم الوالي، فكان يُنَهْنِهُ من حدّة جمال، ويشفع للكثيرين عنده، وينقذ الكثيرين من عدوانه.

يُروى أنّه لما قدم جمال باشا دمشق – وكان شكيب يسكن في دمشق خلال الحرب العالميّة الأولى – أراد من بطريرك الموارنة أن يأتي إليه ليسلّم عليه، فعارضه شكيب وقال له: إنّ البطريرك شيخ طاعن في السن، وإنّه لا يقدر على المجيء، وإنّ طائفته قد تحسب ذلك إهانة لها في شخص البطريرك. وانتهى الحوار بأن يُقدِمَ أربعةٌ من الموارنة للسلام على جمال باشا. وقد حَمَدَ المطارنةُ لشكيب هذا الموقف.

وانتهت الحرب العالميّة الأولى، ووقع ما حذّر منه شكيب، فإذا الحلفاء يخدعون العرب، ويخونون مواثيقهم مع الثورة العربيّة الأولى، وإذا بلاد العرب تصير نهبًا مقسّمًا بين إنجلترة وفرنسة، وإذا فرنسة تبسط يدها [...] على الشام، وإذا شكيب، عدوّ فرنسة اللدود، لا يجد له مقامًا في وطنه، فيضطرّ إلى الرحيل عنه، ويستقرّ في بلدة "مرسين" التركيّة على مقربة من الحدود السوريّة. ولعلّه اختار هذه البلدة ليكون بمنجاة من طغيان فرنسة من جهة، وليكون قريبًا من وطنه الحبيب من جهة أخرى، ليتنسّم أخبار السيّدة الوالدة "أمّ البنين" التي يعزّها شكيب ويجلّها ويصعب عليه الابتعاد عنها.

---

١. كتاب شكيب عن شوقي، ص ٤٥– ٤٨.

واستمرّ شكيب حينًا في "مرسين"، ولكنّه رأى الأتراك يديرون ظهورهم للعرب، ويتنكّر حكّامُهم للخلافة الإسلاميّة فيلغونها، ويتّجهون اتّجاهًا "علمانيًّا" قطعوا الروابط بينه وبين الإسلام والعروبة، فأخذ شكيب يحدّد موقفه ويرسم خطّته، فإذا هو ينفض يده من تركية وحكّامها، وإذا هو يبدأ في الدعوة إلى الوَحدة العربيّة، لأنّها ركن في عزّة العرب والمسلمين، حتّى قال الملك فيصل الأوّل لشكيب: "أشهد أنك أوّل عربيّ تكلّم معي في الوَحدة العربيّة، وأراد أن تكون وَحدة عمليّة".

وبعد حين سافر شكيب من "مرسين" إلى "برلين"، واشترى هناك بيتًا أقام به سنوات، وأخذ يجاهد بقلمه ولسانه وفكره في سبيل العروبة والإسلام، وبعد مدّة انتقل إلى "جنيف" عاصمة سويسرة وأقام بها.

وفي سنة ١٩٢٢ تألّف وفد سوريّ فلسطينيّ للدفاع عن قضايا العرب وحقوقهم أمام جمعيّة عصبة الأمم بجنيف، واختير شكيب عضوًا بارزًا في هذا الوفد.

وفي العام المذكور [١٩٢٢]، حاول شكيب أن يتفاهم مع المسؤولين في إيطالية لمعاونة العرب ضدّ المحتلّين لبلادهم. ولقد اشترك، في هذا التفاهم، السيّد محمّد رشيد رضا صاحب "المنار". [...] ويظهر أنّ رشيد رضا كان قد سبق إلى الاتّصال بالحكومة الإيطاليّة لتسير مع العرب سيرة تخالف إنجلترة وفرنسا المُعتديَتين، وكان هذا الاتّصال عام ١٩٢١، ومع هذا كان رشيد غير مطمئنّ إلى النتيجة تمامًا.

وفي عام ١٩٢٤ أسّس شكيب في برلين جمعيّة اسمها "هيئة الشعائر الإسلاميّة" لتكون بعيدة عن الشؤون السياسيّة، وتهتمّ بأمور المسلمين في البلاد الألمانيّة، وقد تشكّلت هذه الجمعيّة من أعضاء يمثّلون جميع الشعوب الإسلاميّة، واشترك فيها موظّفو السفارات الإسلاميّة كأعضاء عاملين.

وبجوار اهتمام شكيب بالشؤون الإسلاميّة، عُني عناية ملحوظة بالقضيّة العربيّة والوَحدة العربيّة، ونحن نجده يكتب مقالًا عنوانه: "أَزِفَتْ ساعة الاتّحاد أيّها العرب" وذلك في أغسطس ١٩٢٥، ويقول فيه: "القضيّة ليست قضيّة تاج ولا صولجان، وإنّما هي قضيّة الأمّة العربيّة التي ينبغي أن يكون أمرها فوق الإمارات والولايات، وأنّه خير للمرء أن يكون راعي ضأن في عزّ قومه من أن يكون السلطان الأعظم على قوم أذلّاء.. وهل من سلطان – أَعْظَمَ أو أَصْغَرَ– لِمَن سيطر الأجنبيّ عليه، وقاده كما يُقاد البعير"؟

وفي الرابع عشر من فبراير سنة ١٩٢٦ سافر شكيب على رأس الوفد السوريّ إلى رومة، ليبسط القضيّة السوريّة أمام "لجنة الإنتداب"، بعد أن نجح قبل ذلك في إقناع "المركيز تيودولي"، رئيس هذه اللجنة، بعقدها في رومة. وقد نشر شكيب يومئذ على الصحف بيانًا عن الحالة الأليمة في سورية، ممّا أثار حَنَق فرنسة. ويقال إنّ ملك إيطالية حينئذ سأل عن تفاصيل القضيّة بسبب ذلك.

وفي اليوم التالي قابل شكيب رئيس اللجنة، وقدّم إليه مطالب سورية التي تتلخّص في إلغاء الإنتداب، ووَحدة سورية، وإصدار دستور لها، وتحديد العلاقة بينها وبين فرنسة.

وفضح شكيب الألاعيب التي تقوم بها فرنسة مع تركية على حساب سورية ، وسلخ "أنطاكية" و"الإسكندرونة" وبقعة أخرى لتقديمها إلى تركية.

وكتب شيخ العروبة أحمد زكي مقالًا بعنوان "بين فرنسة وإنجلترة" حيّا فيه جهاد شكيب وأخيه إحسان الجابريّ، وكان ممّا قاله: "وإنّ قضيّة يدافع عنها شكيب وإحسان لهي مكسوبة، إن كان للحقّ بقيّة في أرض روميّة. إنّ موقفكما في طلب الحقّ لأهل الشام شبيه بما

حصل لإثنين من أكرم أبناء الشام، فقد أصابهما الاضطهاد في نفسيهما، ونال الإرهاق كلّ منال من قومهما، فذهبا إلى رومية، وانتهى بهما الأمر إلى الفوز الذي لا يعادله فوز. إنّ التاريخ يعيد نفسه، وسيكون لشكيب وإحسان شأن يشابه ما كان لبطرس الحواريّ، وبولس الرسول، رضي الله عنهما وعنكما". وقد نُشر مقال شيخ العروبة في عدد ١٨ مارس عام ١٩٢٦ من "الشورى".

ولقد أراد أذناب الاستعمار أن يشكّكوا في موقف شكيب ومدى تعبيره عن إرادة بلاده، فأتى شكيب بسندات توكيل من عشرين جمعيّة سوريّة استقلاليّة، وأطْلَعَ "المركيز تيودولي" عليها، ومع ذلك ظلّ أعداء شكيب يتحاملون عليه، وقد بسط الحديث عن ذلك في مقال له في جريدة "الشورى" بتاريخ ١١ مارس ١٩٢٦ جعل عنوانه: "لا يضرّ الشمس إطباق الطَّفَل[١]".

وفي عدد ٢٨ مايو ١٩٢٦ من "الشورى" يتحدّث شكيب عن جهاده وجهاد زملائه في الوفد السوريّ لدى عصبة الأمم، ثمّ يقول: "وقد بلونا في هذه السنوات الخمس من معاملات الدول العُرف والنُّكر، وذقنا الحلو والمرّ، ورأينا الهزء والجدّ، وعرفنا الجزر والمدّ، ولم يبقَ وجه يمكن أن تنحلّ به عقدة سوريا إلّا فكّرنا فيه، وأَجَلْنا النظر في ظواهره وخوافيه، فلم نجد لنا نجاة إلّا بالاستقلال التامّ، والدخول في جمعيّة الأمم، والتوفُّر على إصلاح داخليّتنا، والمبادرة إلى تأسيس جيش نذبّ [أي نذود أو ندافع] به عن حوض وطننا، ونتّقي الغارات التي لم يُوجِد سبيلها إلينا إلّا كوننا عُزَّلًا".

والذي يبدو أنّ شكيب كان أكثر زملائه في الوفد نشاطًا في الكتابة والحديث، وهناك كثير من البيانات المشتركة بتوقيع شكيب، وهناك كثير من البيانات المشتركة ويلوح أسلوب شكيب فيها. وفي ما يلي أحد الأمثلة. فقد جاء في بيان موقَّع بتوقيع شكيب أرسلان وتوقيع زميله إحسان الجابريّ العبارة التالية: "والذي نعلمه أنّه في سنة ١٩٣٠ حضر من لندرة [لندن] بالطيّارة المستر أوليفر مدير المدرسة الإنكليزيّة في (رأس المتن) من لبنان، وأراد أن يقابل أحدنا- شكيب أرسلان- في جنيف، فلمّا قابلني علمت منه أنّه يريد أن أتلاقى مع (ويزمن) لأجل تبادل الآراء في قضيّة فلسطين، علّه يوجد لها حلٌّ يرضي الطرفين، فأجبت أوليفر هذا الذي كنت أعرفه من لبنان بالرفض التامّ الباتّ"[٢]. والأسلوب هنا يصرّح بأنّ الكاتب هو شكيب، وبعد أن يتكلّم شكيب في البيان بضمير المفرد زمنًا يعود إلى ضمير الجمع، لأنّ البيان مشترَك.

وفي هذه السنوات التي يشير إليها شكيب، وغيرها أيضًا، كانت فرنسة العدوّ الأوّل لشكيب، كما كان شكيب هو العدوّ الأوّل لفرنسة من بين زملائه. ولقد جاء في كتاب "عروة الاتّحاد" أنّ بعض رجال فرنسة صرّح بأنّ شكيب هو "عدوّ فرنسة القديم الدائم". وأنّ الفرنسيّين في المغرب نفَوا تاجر كتب لأنّهم وجدوا عنده مكتوبًا علميًّا من شكيب. وكتبت إحدى الصحف الفرنسيّة تقول" "يلزم إعدام شكيب أرسلان".

وفي "الرِّباط" منعوا كلّ كتابة من شكيب مهما كان موضوعها، وصادر الفرنسيّون كتابًا لا علاقة له بالسياسة إطلاقًا، وذلك لأنّ فيه مقدّمة علميّة بقلم شكيب، لأنّه "يكفي للمنع ورود اسم شكيب أرسلان في الكتاب".

وعملت فرنسة على إخراج شكيب من طنجة بالقوّة حين زيارته لها ونجحت في ذلك، وآذى الفرنسيّون كلّ من احتفل بشكيب، وأغروا به صحفهم، وأرهقوه بجواسيسهم ..الخ.

[١. الطَّفَل (بفتح الطاء والفاء): الظلام.]

٢. جريدة الشباب، عدد ٥ مايو ١٩٣٧.

ولم تكتفِ فرنسة مع شكيب بالأعمال التعسفيّة، بل انتقلت إلى الافتراء والتشويه، فأخذت الصحف الفرنسيّة تشتمه وتختلق الأنباء الكاذبة حوله، وتتساءل: من أين ينفق مع زميليه في الوفد السوريّ: إحسان الجابريّ ونجيب الأرمنازي؟.

ثمّ تزعم أنّه على صلة بمركز بثّ الدعاية الألمانيّة في الشرق، فهو مساعد في تحرير جريدة "نيو أوريان"، وأحد أعضاء النادي الشرقيّ في برلين، ويعمل بالاتّفاق مع اللجان السوريّة الثوريّة في برلين وميونيخ.

ثمّ تَزعمُ هذه الصحف أنّ هذه اللجان تتلقّى الأوامر من الشيوعيّة النابتة في موسكو!.

وقالت هذه الصحف: إنّ هذا الرجل اشترك في جميع الحركات الثوريّة التي قامت ضدّنا منذ سنة ١٩٢٠، وظهر في "مرسين" سنة ١٩٢٤ ينظّم أعمال اللجان العربيّة، وهو الذي رأس "مؤتمر الشعوب المظلومة" في رومة سنة ١٩٢٢، وهو المؤتمر الذي قال عنه (راكوفسكي): إنّه "أهمّ حادث وقع في خلال مؤتمر جنوى بعد معاهدة رابالو"!

وحينما نراجع تاريخ شكيب أرسلان، بعد رحيله إلى أوربّة، نجد أنّه كان مُطارَدًا من أكثر من دولة. فتركية تطارده لاهتمامه بقضايا العرب ولحملته على تنكّر حكّام الأتراك للخلافة والإسلام، وإنجلترة تطارده لمناصرته الدول التي يحتلّها الإنجليز، وفرنسة تطارده لدفاعه عن سورية ولمناصرته المغرب، وكان "الملك فؤاد" يطارده ويمنعه دخول مصر، ظنًّا منه أنّه متصل بالخديوي عبّاس حلمي الثاني الذي قيل إنّه كان يعمل للعودة إلى عرش مصر ...

ولعلّ البعض يفهم من هذا أنّ شكيب كان عنيدًا لا يعرف التفاهم او التساهل في معاملته ومطالبته،وهذا فهم يبعد عن الواقع، فنحن نلحظ التساهل عند شكيب في أكثر من موطن. كتب في "الشورى" في ١١ فبراير ١٩٢٦ يقول: "نعترف بأنّ فرنسة تقدر على تدويخنا بالقوّة، لكنّنا واثقون بأنّ شرفنا القوميّ يأبى إلّا أن نرفع رؤوسنا في ما بعد عند كلّ فرصة مناسِبة، ولهذا نرى أنّه لا يصعب، لأجل مصلحة الأمّتين، إيجاد شكلٍ وئامٍ وسلام بين فرنسة وسورية يضع حدًّا لأسباب النزاع بيننا".

وبعد أن يصوِّر المطلب الأساسيّ لسورية بقوله" "فالسوريّون يطلبون، قبل كلّ شيء، استقلالهم التامّ الناجز نظير سائر الممالك المستقلّة، ويبغون التمتّع التامّ بسلطانهم القوميّ، ويريدون إذن أن يكونوا داخلين في جمعيّة الأمم، أي أنّهم يريدون الاستمتاع بجميع نتائج الاستقلال من الوجهة الفعليّة ومن الوجهة القانونيّة".

بعد هذا يذكر أنّ لبنان يريد الاستقلال بنفسه ولا مانع من ذلك، ويرى أنّ أقضية صيدا وصور ومرجعيون ومقاطعة طرابلس، وأقضية البقاع وبعلبك وراشيّا وحاصبيّا، يكون لها الحقّ في اختيار أيّ القطرَين لتنضمّ إليه، وأمّا بلاد العلويّين فتدخل ضمن سورية.

ثمّ يعترف شكيب ببعض المنافع الإقتصاديّة لفرنسة في سورية تحت ضغط الظروف القائمة. فإذا اضطرّت سورية لمال لجأت إلى فرنسة، ويوافق على أنّ مدرّبي الجيش السوريّ يكونون من ضبّاط فرنسة، وأنّ تعليم اللغة الفرنسيّة يكون إجباريًّا، وتُعْقَد محالفة بين سورية وفرنسة إلى ثلاثين سنة "لأجل توطيد العلاقات الأخويّة بين الأمّتين"، وتضع سورية تحت تصرّف فرنسة عددًا من الجنود في حالة الحرب.

[...] ولقد قوبلَت هذه الآراء بنقد وتجريح، وزاد البعض فيها وحرّف، [...]، ولكنّنا نستشهد بها [للدلالة] على أنّ شكيب كان يتساهل أحيانًا حتّى يُغضب بتساهله الكثيرين.

وقال شكيب إنّه إذا كان قد قَبِلَ أن تُقدّم سورية لفرنسة جنودًا في حالة الحرب، فهذا على أساس المعاملة بالمثل، فتنجد فرنسة سورية أيضًا في حالة الخطر. [...] وأكّد شكيب أنّ مساعدة سورية فرنسة لا تعني أبدًا أن تقدّم سورية جنديًا واحدًا لمقاتلة دولة عربيّة، أو أمّة عربيّة، أو أمّة ناطقة باللسان العربيّ!...

وفي سنة ١٩٢٧ سافر شكيب إلى أمريكة الشماليّة حيث رأس مؤتمرًا عربيًّا في بلدة "ديترويت"، بناء على دعوة تلقّاها من عرب المهجر هناك.

كما زار روسية في أواخر السنة المذكورة، حيث استقبله القوم هناك بحفاوة وإجلال، وطالب عقب ذلك بتحسين العلاقات بين العرب والروس.

وفي سنة ١٩٢٩ م حجّ شكيب إلى بيت الله الحرام، والتقى بالملك عبد العزيز آل سعود، ووضع عن هذه الرحلة كتابه "الارتسامات اللِطاف في خاطر الحاجّ إلى أقدس مطاف".

وفي سنة ١٩٣٠ قام برحلة إلى إسبانية، [ثمّ]عاد فكتب كتابه "تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسّط". كما بدأ يفكّر في إصدار كتابه الجليل "الحلل السندسيّة في الآثار والأخبار الأندلسيّة".

كما أخذ يُصدِر مجلّة "الأمّة العربيّة" بالفرنسيّة في جنيف، يدافع فيها عن قضايا العروبة والإسلام.

وفي سنة ١٩٣٤ اشترك في وفد الصلح الذي أرسله المؤتمر الإسلاميّ بالقدس للتوفيق بين الملك عبد العزيز آل سعود والإمام يحيى ملك اليمن بعد أن نشبت الحرب بينهما، واستطاع الوفد أن يقوم بمهمّته على الوجه المُرْضي.

وفي صيف ١٩٣٧ سمحت له فرنسة بأن يزور سورية، واستقبله أبناء وطنه استقبالًا رائعًا، وسعد بتقبيل يد أمّه السيّدة الوالدة أمّ البنين. وأرادت حكومة سورية أن تعبّر عن تقديرها له، فأصدرت قرارًا بتعيينه رئيسًا للمجمع العلميّ العربيّ بدمشق، ولكنّ فرنسة عادت فنقضت المعاهدة التي كانت قد عقدتها مع سورية سنة ١٩٣٦، فترك شكيب رئاسة المجمع، وعاد إلى أوربّة.

وفي سنة ١٩٣٩ أذن المسؤولون في مصر له بزيارتها، بعد أن حِيل بينه وبينها سنوات طويلة، فزارها، وبعد أن قضى في مصر نحو أربعة أشهر عاد إلى أوربّة، وظلّ يكتب ويخطب ويراسل ويؤلّف.

وتعرّض شكيب، وهو في أوربّة، لضوائق ماليّة كثيرة صوّر طائفة منها لصديقه السيّد محمّد رشيد رضا في أكثر من رسالة بعث بها إليه [...].

وقامت الحرب العالميّة الثانية بظروفها القاسية التي نال منها شكيب نصيبه، ولكنّه لم يكفّ عن الجهاد في سبيل العرب والمسلمين. وانتهت الحرب عام ١٩٤٥، وتحرّرت سورية ولبنان، فعاد شكيب إلى وطنه في آخر أكتوبر ١٩٤٦، واستقبله قومه بحفاوة وإكبار، وظلّ الزوّار يتوالون — وفدًا بعد وفد — للتسليم عليه، والترحيب به، والاستماع إليه.

وضعفت صحّته بعد مرور السنين، وطول الكفاح، وتوالي المتاعب، وكثرة الأمراض ..

لقد تعرّض شكيب خلال حياته لأكثر من مرض، [منها أمراض] الرطوبة، والزكام المزمن في شعاب الرئة، وأزمة الصدر، والمثانة، والكلي، وعسر النفس، كما تعرّض في أخريات أيّامه لمرض عينيه، وتصلّب الشرايين، وغيره ..

وفي يوم الإثنين ١٥ من المحرّم سنة ١٣٦٦هـ الموافق ٩ من ديسمبر سنة ١٩٤٦م لحق شكيب أرسلان بربّه، بعد حياة طويلة حافلة. وصلّوا عليه في الجامع العمريّ ببيروت، ثمّ نقلوا جثمانه إلى قريته "الشويفات" حيث دُفن فيها بجوار أخيه عادل أرسلان.

مات شكيب تاركًا خلفه زوجته "السيّدة سليمى الخاصّ بك حاتوغو"، الشركسيّة الأصل، التي تزوّجها سنة ١٩١٦، وأولاده الثلاثة وهم: غالب، ومي، وناظمة. ولم يترك ثروة وراءه سوى كتبه وبيت في برلين، وزيتونات في قطعة أرض بلبنان.

وكان شكيب يَعرف، إلى جوار اللغة العربيّة، اللغّة الفرنسيّة، والتركيّة، والإنجليزيّة، وجانبًا من الألمانيّة.

(...) كان متديّنًا محافظًا على الصلاة، وحياته كلّها كتابة أو قراءة أو حديث أو رحلة، (...) وكان لا يهمّه الأكل. فما يُقدَّم إليه يأكل منه، وإنْ كان يحبّ ألوانًا خاصّة كالشكشوكة، والكسكسى، والكبيبة، وكانت خادمته "خضرة" تصنعها له في جنيف.

وكان يحبّ الفاكهة والحلوى والرائحة الطيّبة، ولا يتعاطى المخدّرات ولا المسكرات، ولا يدخّن، ولكنّه يشرب القهوة المرّة التي تُصْنَع مع "الحبهان"، وكان يعجبه قول الإمام النابلسيّ في القهوة:

قهوةُ البُنِّ حَلالٌ   وإنْ نهى الناهون عنها

كيف تُدعَى بِحرامٍ   وأنا أشربُ منها ؟!

وكان شكيب يميل إلى الطول في القامة، وهو حنطيّ اللون، أسود الشعر في شبابه، ثمّ صار أبيض، ولم يكن يصبغه، ولكنَه كان يصبغ شاربه، وكان أَمْيَلَ إلى الامتلاء في شبابه، وله كرش، ولكنّه نحل في آخر حياته، كما ضعف بصره، وكانت يده ترتعش في هذه المرحلة إذا كتب، ويبدو أثر هذا الإرتعاش في حروف كتابته (...)، وكان صوتُه أَمْيَلَ إلى الخشونة والامتلاء.